وزارة التعليم العالي والبحث
العلمي
جامعة بغداد
كلية العلوم الإسلامية

مجلة كلية العلوم الإسلامية

فكرية – فصلية - محكمة
تصدرها

كلية العلوم الإسلامية
جامعة بغداد

العدد: ٢

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد: (٦٣٣) لسنة ١٩٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير الصحابة منهجاً وحجية

الدكتور محمد صالح عطيه
أستاذ التفسير المساعد في كلية العلوم الإسلامية

مُقَدِّمَة

أحمد الله الذي انزل القرآن تبيانا، وأصلي وأسلم على أشرف خلق الله إنسانا وعلى آله وصحبه الى يوم أن نلقاه ويلقانا.

أما بعد : فان تحمل عبء تبليغ كتاب الله جل وعلا من لدن الصحابة الكرام الذين شاهدوا التنزيل وعرفوا التأويل جعلهم أعلم الناس بكتاب الله وشرعه فلم يشغلهم شيء غير القرآن فقد أفادوا من توجيهاته ومعارفه وحقائقه ومنهجه فصاغهم صياغة إيمانية استحقوا بها رضا الله جلت قدرته لذلك وددت الوقوف على منهجهم التفسيري وحجتيه فشرعت على ما استهويت فتتبعت المادة العلمية استقصيها من مظانها وقد توزعت على ثلاثة مباحث تناول :

الأول – دور الصحابة ومكانتهم التفسيرية.

الثاني – وضحت فيه منهج الصحابة في التفسير.

أما المبحث **الثالث** فقد عالجت فيه – حجية تفسير الصحابة وقيمته العلمية وختمت البحث بأهم النتائج التي توصلت إليها.

أسأله تعالى أن يجعل هذا الجهد مساهمة موفقة لخدمة القرآن المجيد إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

المبحث الأول

دور الصحابة ومكانتهم التفسيرية

حصل الصحابة رضي الله عنهم شرف الصحبة برسول الله ﷺ وتربوا بأفياء مدرسته فنهلوا من معين علمه وثاقب فهمه ما جعلهم أمثلة تضرب وقدوة تحتذى، ولاسيما حبهم للقرآن وشغفهم به الأمر الذي دفعهم لمعرفة معانيه وكشف أسرار ألفاظه والأخذ بأحكامه وتوجيهاته وتطبيقها، فكانوا بذلك أصفى ذهنا واصدق لسانا وأعمق إيمانا وأكثر تواضعاً وأعلى رتبة وابعد نظرا وأنقى فطرة وقد شهد لهم قرآن يتلى بالرضا والفوز قال سبحانه ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه واعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ﴾(١) وهذا الإعداد حملهم مسؤولية كبيرة بعد وفاة رسول الله ﷺ فتحملوا عبء تبليغ كتاب الله وكشف معانيه للناس فكانوا بعِظَمْ المهمة بفضل ما يحملون من مواصفات أهلتهم لذلك وأبرزها ما يأتي :-

١- عرفوا أن واجبهم البيان وعدم كتمان العلم لأنهم يرددون قوله تعالى ﴿إن الذين يكتمون ما نزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾(٢) .

٢- لقد واجه الصحابة الكرام مستجدات كثيرة تستلزم منهم استنباط أحكام أو كشف لثام عن معنى لم يرد به عن رسول الله ﷺ مما جعلهم أمام أمرين :

أ- إما أن يتوقفوا دون ما وصلهم من رسول الله ﷺ فتتعطل بذلك الأحكام وهذا ما يخالف سنة الكون، وما تربوا عليه.

ب- وأما أن يقولوا شيئاً يليق بمقامهم ويحل ما يعترضهم من اشكالات(٣). مسترشدين بهدي النصوص الكريمة التي تدعو للاجتهاد قال سبحانه ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آيات وليتذكر اولوا الألباب ﴾(٤) ولا يحصل إلا بفهم المعاني.

---

(١) التوبة - الاية : ١٠٠.

(٢) البقرة - الاية : ١٥٩.

(٣) أنظر : الموافقات : ٣/٣٥٥.

(٤) سورة ص - الآية : ٢٩.

٣- نستشف من دعاء رسول الله ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)[٥] ان للتفسير طريقاً أخر غير الطريق السماعي وهو طريق الاجتهاد والاستنباط الا لما كان معنى لتخصيصه بذلك[٦].

٤- إن التربية العقلانية التي انتهجها القرآن وسلك طريقها الرسول ﷺ كانت خير حافز للصحابة الكرام ليأخذوا دورهم في سبر أغوار المعاني القرآنية فرسول الله ﷺ عندما نادى أبي بن كعب وهو مستغرق في صلاته فلم يجبه قال : ألم تسمع قول الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم﴾[٧] والتي يستدل بها على إباحة ترك ظاهر العموم للاعتبار بالأحوال[٨]. قال ابن عاشور : انه ما أراد بتفسيره الإ إيقاظ الأذهان إلى اخذ أقصى المعاني من ألفاظ القرآن[٩]. هذا غيض من فيض لأسباب هيأت الصحابة الكرام لان يأخذوا دورهم الإيجابي والفعال في الحياة بعد وفاة رسول الله ﷺ بعدما كانوا يتهيبون من القول في القرآن في حياة ﷺ لأنهم وجدوا أنفسهم أمام مهمة هم أهلها لا يمكن التغاضي عنها لان ذلك يؤدي إلى اضطراب في القول وخلل في العمل. مما حدا بالمؤهلين أن يلجوا أبواب التفسير تدفعهم الشفقة على المسلمين ويحثهم الخوف عليهم لتهيئة ما يرشدهم للصواب ويجنبهم العقاب[١٠]. وكان لهذا الولوج أهمية كبيرة حيث وصلت إلينا مادة تفسير ضخمة تدعونا الى الاعتزاز بتلك الجهود المبذولة والاهتمام الرائع بكتاب الله جل وعلا على الرغم من عدم وصول الكثير منها الينا.

---

(٥) فتح الباري : ٨٠/٧ ومجمع الزوائد : ٢٧٦/٩.

(٦) أنظر : إحياء علوم الدين : ٢٩٠/١.

(٧) الانفال - الآية ٢٤.

(٨) جامع بيان العلم وفضله : ٢/ ٧٩.

(٩) التحرير والتنوير : ٧٥/١.

(١٠) انظر : مقدمة ابن عطية : ٢٦٢.

ولقد برز من بين الصحابة مفسرون كثر أشهرهم : (الخلفاء الأربعة وأبن مسعود وأبن عباس وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وأبو موسى الاشعري وعبد الله بن الزبير)(١١) وسأقتصر الحديث عن بعضهم ولاسيما المكثرين منهم :

١- سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ لقد كان لتربيته في بيت رسول الله وملازمته له جعلته في موقع متقدم في هذا العلم كيف لا وقد أعطى بصيرة نافذة وقوة إدراك أهلته للإحاطة بكتاب الله واستجلاء معانيه وفهمها ومما يؤيد هذا تعوذ سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن(١٢). وهذا حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما يعترف بأن ما أخذه من التفسير فهو عن سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه(١٣). وهاهو سيدنا علي ﷺ يقول : (سلوني فو الله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله فو الله ما من آية إلا وأنا اعلمُ بليل نزلت أم بنهار ؟ أم في سهل أم في جبل ؟) (١٤)

٢ - سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : حظي بمكان سامق، وشهرة منقطعة النظير فسمي البحر لسعة علمه بكتاب الله تفسيرا وتأويلا (١٥)، وقد كان لدعوة الرسول الكريم (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) أثر في تلك الإحاطة، وقد أثنى عليه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بقوله :(ابن عباس كأنما ينظر الى الغيب من وراء ستر رقيق)(١٦) وروي عنه الكثير مما فاق غيره من الصحابة ولذلك قال العلماء (ورد عنه ما لا يحصى كثرة)(١٧).

٣- سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ عالم موصوف بالفطنة ويكفيه فخراً أن رسول الله ﷺ عدّه من الأربعة الذين يؤخذ عنهم القرآن بقوله : استقرءوا القرآن من أربعة : من عبد

---

(١١) الاتقان : ١٨٧/٢.

(١٢) اعلام الموقعين : ١٦/١.

(١٣) انظر : مقدمة ابن عطية : ٢٦٣.

(١٤) الطبقات الكبرى : ٣٣٨/٢.

(١٥) فتح الباري : ٨٠/٧.

(١٦) البرهان : ١٥٧/٢.

(١٧) مقدمة ابن عطية : ٢٦٣.

الله بن مسعود وسالم ومعاذ وأبي بن كعب)(١٨) وشهد له علي بن ابي طالب ﵁ فقال: (علم القرآن والسنة ثم انتهى وكفى بذلك علما)(١٩) ونلمس قدرته التفسيرية بوضوح عند قوله : (والذي لا اله غيره لو أعلم أحداً أعلم مني في كتاب الله تبلغه الإبل لركبت اليه)(٢٠) .

٤- سيدنا أبي بن كعب ﵁ : هو أحد كتاب الوحي، وكان من المكثرين في التفسير ويعد سيد القراء باستحقاق، واقرأ هذه الأمة على الإطلاق، وكان ممن شهد بدراً وقد بين رسول ﷺ فضله بقوله له : إن الله أمرني أن اقرأ عليك ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب﴾(٢١) قال وسماني ؟ قال : نعم فبكى أبي)(٢٢) وكان الصحابة حينما يسألوا عنه يقولون : هذا سيد المسلمين، ولما مات قالوا : مات اليوم سيد المسلمين(٢٣).

وعليه فان مما يبعث الاطمئنان من أن هذه الإمكانيات العالية وهذه الموصفات الكريمة كفيلة من أن تخوض بحر التفسير لتستخرج لنا درره وتستكشف لنا معانيه وتبين لنا أحكامه وتستنبط لما يستجد من حوادث ما يلائمها من أحكام، وقد سلك الصحابة الكرام منهجاً موفقاً نوضحه في المبحث الآتي.

المبحث الثاني

منهج الصحابة في التفسير

إن الذي يدرس تفاسير الصحابة الكرام يتضح له ان مناهجهم التي سلكوها في التفسير تكاد تكون موحدة لأنهم يرجعون إلى المصادر نفسها وبتسلسل منطقي فهم يعتمدون القرآن والسنة والاجتهاد والرجوع إلى أهل الكتاب ولأجل الوقوف على منهجهم نوضح فيما يأتي مصادر تفسيرهم التي يعتمدونها :

---

(١٨) الاتقان :١/٧٠.

(١٩) حلية الاولياء : ١/١٢٩ والاتقان : ٢/١٨٧.

(٢٠) البخاري بشرح فتح الباري : ٩/٤١.

(٢١) البينة – الاية : ١.

(٢٢) البخاري بشرح فتح الباري : ٧/١٠٠.

(٢٣) الطبقات الكبرى : ٢/٥٠١.

١- القرآن الكريم

مما لاشك فيه إن أحسن طرق التفسير هو تفسير القرآن بالقرآن لأنه ضابط تفسيري لا يمكن لمفسر تجاوزه، لان الله جل وعلا أدرى بمراده زيادة على ان (ما أجمل في مكان فانه فسر في موضع آخر، وما أحتصر في مكان فقد بسط في موضع آخر)(٢٤) وقد فهم الصحابة الكرام هذه الطريقة من الرسول ﷺ ولذلك كانوا في أعلى مستويات الاستعداد للوصول إلى تفسير مقنع لما يواجههم من إشكال(٢٥). يسعفهم حفظ القرآن وقدرتهم على جمع الآيات التي تعالج موضوعاً واحدا وقابليتهم لمقابة الآيات بعضها بالبعض الأخر(٢٦). ولعل هذه النماذج تكشف إمكانيتهم في إستخدام هذا المصدر في تفسيرهم فهذا أبن عباس رضي الله عنهما فسر قوله تعالى ﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾(٢٧) بقوله سبحانه ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾(٢٨) وبهذه القدرة على الربط بين الآيات تتوضح المعاني التفسيرية حيث تتجلى حياتنا وميتتان فالله جلت قدرته أحياهم من عدم ثم يميتهم بعد حياة ثم يحييهم بعد موت(٢٩). ومن هذا القبيل حمل بعض القراءات على غيرها ولاسيما التي تختلف لفظاً وتتفق معنى فقراءة ابن مسعود ﵁ (أو يكون لك بيت من ذهب) فسرت لفظ الزخرف في القراءة المشهورة ﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾(٣٠) وهذا أبي بن كعب ﵁ يسعفه حفظه لان يجمع الآيات من سور مختلفة ليظهر معنى من المعاني عندما جاءه عمر بن الخطاب ﵁ برجل يقرأ هذه الآية ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم

---

(٢٤) مقدمة في اصول التفسير : ٣٩.

(٢٥) أنظر : تطور تفسير القرآن، ص ٩٦ .

(٢٦) أنظر : التفسير والمفسرون : ٣٧/١.

(٢٧) المؤمن – الآية : ١١.

(٢٨) البقرة – الآية : ٢٨.

(٢٩) أنظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٧٣/٤.

(٣٠) الاسراء – الآية : ٩٣.

بإحسان﴾(٣١) فأخذ عمر ﵁ بيده فقال : من أقرأك هذا ؟ فقال أبي بن كعب ﵁ فقال : لا تفارقني حتى أذهب بك إليه، فلما جاءه قال عمر ﵁ أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا ؟ قال نعم قال وسمعتها من رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم، قال : لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا. فقال أبي : تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم﴾(٣٢) وفي سورة الحشر ﴿والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾(٣٣) وفي سورة الأنفال ﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم﴾(٣٤) وسبب القصة أن عمر بن الخطاب ﵁ كان يقرأ الآية: ﴿والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان﴾(٣٥) برفع (الأنصار) عطفاً على (والسابقون الأولون)(٣٦). وهكذا تتضح قيمة هذا المصدر العظيم في كشف المعاني وبيانها.

٢- السنة

تعد السنة المطهرة من مصادر التشريع بعد القرآن الكريم ودليل ذلك القرآن والسنة نفسها والإجماع والمعقول ولذلك وجب الأخذ بها والعمل بمقتضاها لأنها تفصل المجمل وتخصص العام وتقيد المطلق وتزيل الأشكال، ولذلك لما عرف الصحابة قيمتها تمسكوا بها وسلكوها طريقاً ولاسيما في تفسيرهم للآيات القرآنية فان لم يسعفهم القرآن ببيان التجؤا إلى السنة يلتمسون ما ينجدهم فهذا الصديق ﵁ كان (اذا ورد عليه حكم نظر في كتاب الله تعالى فان وجد فيه ما يقضي به قضى به، وان لم يجد في كتاب الله نظر في سنة رسول الله ﷺ فان وجد فيها ما يقضي به قضى به)(٣٧) وهذا ما التزم به

---

(٣١) التوبة - الاية : ١٠٠.

(٣٢) الجمعة - الاية :٣.

(٣٣) الحشر- الاية : ١٠.

(٣٤) الانفال - الاية : ٧٥.

(٣٥) التوبة - الاية : ١٠٠.

(٣٦) أنظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٣٨٣/٢.

(٣٧) الاعلام الموقعين : ٦٢/١ .

الصحابة الكرام ففي تفسير قوله سبحانه ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾(٣٨) فسر ابن عباس رضي الله عنهما ذلك بما روى رسول الله ﷺ (يحشر الناس حفاة عرّاة غرلا وأول ما يكسى إبراهيم ثم قرأ كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين)(٣٩) وهذا أبي كعب رضي الله عنه يورد قول رسول الله ﷺ فاتحة الكتاب هي السبع المثاني)(٤٠) تفسيراً لقول سبحانه ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني﴾(٤١).

٣- الاجتهاد

كان الصحابة رضي الله عنهم يهرعون إلى آيات القرآن يلتمسونها والى السنة يمحصونها لأجل الوصول إلى أدق معنى واظهر بيان فان لم يجدوا اجتهدوا برأيهم يؤهلهم في ذلك سعة إدراك وعمق فهم ومعرفة بأحوال الناس وعاداتهم وقت نزول القرآن(٤٢)، وتشجعهم آيات القرآن وتحثهم على استعمال العقل ومنها ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾(٤٣) وكذلك قوله جل وعلا ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾(٤٤) ولهم رضي الله عنهم اجتهادات كثيرة في مضمار تفسير القرآن الكريم تبين قدراتهم العالية وفهمهم الثاقب فحينما نزل قول الله سبحانه ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾(٤٥) فرح الصحابة الكرام لأنها بشرى كمال الدين ولكن عمر بن الخطاب بكى وقال : ما بعد الكمال إلا النقص(٤٦)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عمر رضي الله عنه يدخلني مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال : لم يدخل هذا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر :

---

(٣٨) الانبياء - الاية : ١٠٤.

(٣٩) صحيح مسلم : ١٧/١٩٣.

(٤٠) الترمذي بشرح التحفة : ٨/٧٨ وقال حسن صحيح.

(٤١) الحجر - الاية :٨٧.

(٤٢) أنظر : تفسير القرآن والمفسرون : ١/٥٨.

(٤٣) محمد - الاية : ٢٤.

(٤٤) الرعد - الاية : ٤.

(٤٥) المائدة - الاية : ٣.

(٤٦) أنظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ١/١٣.

انه ممن قد علمتم، فدعاهم ذات يوم فادخله معهم فما رأيت انه دعاني يومئذ إلا ليريهم فقال : ما تقولون في قوله ﷿ ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾(٤٧) فقال بعضهم : امرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً فقال لي : اكذلك تقول يا أبن عباس ؟ فقلت لا، فقال ما تقول : فقلت هو أجل رسول الله ﷺ علمه له، فقال عمر بن الخطاب ﵁ لا أعلم منها إلا ما تقول(٤٨).

٤ – اللغة

لقد كان الصحابة الكرام يفهمون المعاني القرآنية ولا يجدون كبير عناء في التماسها، كيف لا والقرآن نزل بلغتهم فلطالما رجعوا اليها بعدما أصبح التفسير اللغوي ضرورة بعد انتشار الإسلام واختلاط الأمم واختلاف اللهجات مما حدا بمفسري الصحابة الرجوع إلى الشعر لتوضيح المعاني وفي مقدمتهم ابن عباس رضي الله عنهما الذي استطاع بثقافته اللغوية أن يكشف اللثام عن غريب الألفاظ القرآنية بالشرح والتفسير يقول السيوطي : (وأولى ما يرجع اليه في ذلك ما ثبت عن ابن عباس وأصحابه الآخذين عنه فانه ورد عنهم مايستوعب تفسير غريب القرآن بالأسانيد الثابتة الصحيحة)(٤٩) ومن ذلك كلمة (بورا) في قوله تعالى ﴿وكنتم قوماً بوراً﴾(٥٠) فالبور في لغة أزدعُمان : الفاسد، والبور في كلام العرب : لا شيء يقال : أصبحت أعمالهم بورا مبطلة وأصبحت ديارهم بورا أي معطلة خرابا(٥١).وعندما سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله ﴿أن تبسل﴾(٥٢) تحبس واستشهد بقول زهير :

وفارقتك برهن لا فكاك له يوم الوداع فقلبي مُبسل غلقا(٥٣)

---

(٤٧) النصر – الاية : ١.

(٤٨) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٥٦١/٤.

(٤٩) الاتقان : ١١٤/١.

(٥٠) الفتح – الاية : ١٢.

(٥١) المعجم الجامع لغريب مفردات القرآن الكريم : ٧٥ وانظر : مناهج في التفسير : ٣٤.

(٥٢) الانعام – الاية : ٧٠.

(٥٣) الاتقان : ١٢٦/١ وانظر الاعجاز البياني للقرآن :٣٣٦.

كما سئل عن (جنفا) في قوله جل وعلا ﴿فمن خاف من موص جنفا أو إثماً فاصلح بينهم فلا إثم عليه ان الله غفور رحيم﴾(٥٤) قال : الميل والجور في الوصية واستشهد بقول عدي بن زيد :

وأمك يا نعمان في أخواتها تأتين ما يأتينه جنفا(٥٥)

٥- الإسرائيليات

أطلق هذا المصطلح على كل ما دخل التفسير من قصص ومواعظ وأساطير منسوبة الى اليهود والنصارى(٥٦). والذي كان حب الاستطلاع سبباً لدخولها وبمجال شمل الأخبار والروايات التاريخية(٥٧)، التي ذكرها القرآن وبشكل موجز ولاسيما تلك التي يتفق بها مع التوراة والإنجيل فسأل الصحابة عنها علماء اليهود والنصارى الذين دخلوا الإسلام كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار ووهب بن منبه، ولم يقبلوا ما يعرض عليهم إلا بعد تمحيص ومقابلة وقد تأكد لهم تحريف الكتب السابقة بنص القرآن ففي اليهود جاء قوله سبحانه ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به﴾(٥٨) وفي النصارى جاء قوله سبحانه ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به﴾(٥٩)، وبجانب هذا فان الصحابة الكرام قد صقلتهم الآيات وتربية رسول الله ﷺ فكانوا أشد حرصاً على عقيدتهم وأحكام دينهم فلم يدخلوا اليها شيئاً مخالفاً ولذلك لم يسألوا أهل الكتاب عن عقيدتهم وأحكامهم(٦٠). فموقف الإسلام من الحديث عن أهل الكتاب صريح بقوله ﷺ (بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج)(٦١)

---

(٥٤) البقرة – الاية : ١٨٢.

(٥٥) الاتقان : ١٢٤/١ وانظر الاعجاز البياني للقرآن : ٣٣٦.

(٥٦) انظر : مقدمة ابن خلدون : ٣٤٨.

(٥٧) أنظر : التفسير والمفسرون : ٦١/١-٦٢ وتطور تفسير القرآن : ٢٢.

(٥٨) المائدة – الاية : ١٣.

(٥٩) المائدة – الاية : ١٠٤.

(٦٠) أنظر : التفسير والمفسرون : ١٦٩/١.

(٦١) البخاري بفتح الباري : ٣٨٨/٦.

فالأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد وان معرفتهم بأقسامها تجعلهم اكثر دقة بنقل الأحاديث والاستشهاد بها وهي على ثلاثة أقسام :

١- ما علموا صحته مما بأيديهم مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح كتعيين اسم صاحب موسى ﷺ بأنه الخضر ﷺ.

٢- ما علموا كذبه مما عندهم مما يخالفه كقول اليهود عزير بن الله وقول النصارى عيسى بن الله والذي ترده سورة الإخلاص ﴿قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد﴾(٦٢).

٣- وما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل فلا نؤمن به ولا نكذبه ويجوز حكايته(٦٣) يقول ﷺ (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل من قبل)(٦٤) .

والقسم الأخير هو الذي كان سبباً لاختلاف المفسرين تبعاً لنقلهم من أهل الكتاب واختلافهم فيما يعرضون لهم، واذا جاز للمفسر نقل خلاف المتقدمين فعليه والحالة هذه بيان الصحيح من السقيم والأولى عدم الخوض فيما لا فائدة ترجى منه(٦٥). ومن جملة الإسرائيليات تسمية ما أبهمه الله جل وعلا في القرآن مما لا فائدة من تعيينه تعود على المكلفين لا في دينهم ولا دنياهم كذكر أسماء أصحاب الكهف وعددهم، وعصا موسى ﷺ من أي الشجر كانت، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة وغيرها(٦٦). وهكذا كان الصحابة الكرام يتوثقون مما ينقلون ويمحصون ما يقولون ومع ذلك فقد كثر الوضع عليهم من أعدائهم وأعداء دينهم ولاسيما في هذا الباب، وعلى الرغم من ذلك فان تفسيرهم كان لا يخرج عن الضوابط الصحيحة وقد أمتاز بسمات أجملها فيما يأتي :-

١- قلة اختلافهم في فهم معاني القرآن، وان وجد فهو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد.

---

(٦٢) الاخلاص - الاية : ١-٤.

(٦٣) أنظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير :٤/١.

(٦٤) البخاري بفتح الباري : ٢٨٥/١٣.

(٦٥) أنظر : تفسير والمفسرون : ١٨٣/١.

(٦٦) أنظر : تفسير القرآن العظيم لابن كثير :٤/١.

٢- عدم الإسهاب والتزام الاختصار ولاسيما في التفسير اللغوي.

٣- لم يفسر القرآن كله في عصر الصحابة الكرام، وإنما اكتفى بما غمض فهمه وظهرت الحاجة اليه.

٤- ندرة الاستنباط الفقهي من الآيات يدلل اتفاقهم وعدم اختلافهم.

٥- لم يدون التفسير في هذا العصر على الرغم من كتابة بعض الصحابة، لان التدوين لم يبدأ بعد.

٦- لم يخوضوا في الآيات العلمية والكونية لعدم حاجة عصرهم اليها(٦٧).

هذه السمات جعلت تفسيرهم يقوم على أسس متينة يؤطره ثبات تقوى وعلو همة وصدق إتباع فأينعت جهودهم مدارس تفسيرية تتلمذ فيها كبار التابعين ومنها على سبيل المثال لا الحصر :

مدرسة مكة التي غذاها عبد الله بن عباس رضي الله عنه.

ومدرسة المدينة التي أرسى قواعدها العلمية أبي بن كعب رضي الله عنه.

ومدرسة الكوفة التي أصل أصولها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (٦٨).

المبحث الثالث

حجية تفسير الصحابة وقيمته العلمية

لقد تمخض لنا من خلال الإطلاع على السيرة المباركة للصحابة الكرام من انهم قدموا جهوداً موفقة تبلورت من خلال مفاهيم كثيرة رفدت حركة التفسير في عصرهم ولأجل الوقوف على حجية تفسيرهم نبين ما يأتي :-

أولاً – أتفق العلماء على أن قول الصحابي ليس حجة على صحابي مثله(٦٩).

ثانياً – الخلاف قائم في حجية قول الصحابي على غير الصحابي، ولكي نزيل هذا الإشكال أنعمنا النظر في أقوالهم وأدمنا التفكير فيها فوجدناها تنضوي تحت قسمين هما :

---

(٦٧) أنظر : تفسير والمفسرون : ١/٩٧-٩٨ وانظر:تطور تفسير القرآن : ٣٣-٣٤.

(٦٨) أنظر : تفسير القرآن، أنظر : تطور تفسير القرآن، ٣٤-٣٨.

(٦٩) الاسنوي مع البدخشي : ٣/١٤٢-١٤٣.

أقوال لا مساغ للاجتهاد فيها، وأقوال فيها مساغ للاجتهاد، وفيما يأتي توضيح كلا القسمين:

القسم الأول : أقوال الصحابة التي لا مساغ للاجتهاد فيها حكمها حكم المرفوع إلى النبي ﷺ (٧٠). وتعد حجة ملزمة لا يجوز العدول عنها فهذا الحاكم يقول : (ليعلم طالب هذا العلم أن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل عند الشيخين مسند)(٧١) وهذا الإطلاق قيده ابن الصلاح بما يتعلق (بسبب نزول آية يخبر به الصحابي أو نحو ذلك)(٧٢) كالمحكم والمتشابه والمكي والمدني وغيرها، وعليه فالمرفوع هو ما لا يمكن أن يؤخذ الإ عن النبي ﷺ ولا دخل للرأي فيه ويدخل تحت هذا القسم أنواع مثل :

١- أسباب النزول كقول زيد بن أرقم : (كنا نتكلم على عهد رسول الله ﷺ في الصلاة يكلم الرجل منا صاحبه وهو إلى جنبه في الصلاة حتى نزلت ﴿وقوموا لله قانتين﴾(٧٣) فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام)(٧٤) فالصحابي الجليل حكي واقفاً شاهده وعايشه ومعروف أن سبب النزول لا يحل إلا بالروية والسماع(٧٥).

٢- الناسخ والمنسوخ لان معرفته تتوقف على النقل الصحيح عن رسول الله ﷺ أو عن الصحابي، ولا يعتمد معرفته بقول المفسرين ولا المجتهدين من غير نقل صحيح، لان النسخ رفع حكم واثبات حكم تقرر في حياته ﷺ فلا رأي ولا اجتهاد في ذلك(٧٦).

٣- إذا حصل إجماع الصحابة في تفسير آية أو بيان لفظ أو إقرار حكم فليس لنا إلا الاتباع كإجماعهم على الغسل من التقاء الختانيين المفهوم من قوله تعالى ﴿وان كنتم جنباً فاطهروا﴾(٧٧).

---

(٧٠) أنظر : فواتح الرحموت، شرح مسلم الثبوت : ١٨٦/٢ وأبي بن كعب ومكانته بين مفسري الصحابة: ١٩٢.

(٧١) البرهان : ١٥٧/٢.

(٧٢) علوم الحديث : ٤٥-٤٦.

(٧٣) البقرة - الاية : ٢٣٨.

(٧٤) البخاري بشرح فتح الباري : ١٥٩/١ وأبي بن كعب ومكانته بين مفسري الصحابة : ١٩٢.

(٧٥) أنظر : اسباب النزول : ٣.

(٧٦) أنظر : الاتقان : ٢٤/٢.

٤- ما يتعلق بالمكي والمدني والمجمل والمبهم فانها مما لا مجال للرأي فيها فحكمها الرفع لان النبي ﷺ قد بينه لأصحابه(٧٨).

٥- ويدخل تحت هذا القسم كذلك كل ما يخص الأمور الغيبية كبدء الخلق وأخبار الأنبياء وأهوال القيامة وغيرها شريطة أن لا ينقل الصحابي ذلك عن أهل الكتاب(٧٩).

٦- ما كان تفسيره لغويا فيعد قولهم ملزم لأنهم أهل اللغة يقول ابن خلدون : إعلم ان القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه)(٨٠).

القسم الثاني : أقوال الصحابة التي فيها مجال للرأي والاجتهاد فالعلماء إزاءها على فريقين:

فريق ذهب إلى القول بأن أقوال الصحابة واجبة الأخذ، ووجه دلالتهم أن احتمال السماع من رسول ﷺ أرجح من عدمه، واحتمال الصواب في اجتهاداتهم كثير جدا والخطأ قليل، زيادة على صحبتهم وفضلهم ومشاهدتهم التنزيل ومعرفة كثير من الأحكام، وممن ذهب إلى هذا مالك والشافعي في القديم واحمد في رواية وبعض أصحاب أبي حنيفة، قالوا بتقديمه على القياس عند التعارض.

فيما ذهب الفريق الآخر إلى القول بان الصحابة ليس حجة لان احتمال السماع ليس راجحاً على عدمه، ولو كان نقلهم عن الرسول ﷺ لصرحوا به، فالصحابي والحالة هذه لا يعد مشرعاً وان عصر التشريع انتهى بوفاته ﷺ ، ولذلك عدوا رأي الصحابي كرأي أي مجتهد قابل للخطأ والصواب لأنه غير معصوم فلا يعد حجة، ولاسيما اذا لم يكن رأيهم مستندا إلى كتاب أو سنة، وان كان مستندا اليهما فالحجة في السند لا في الرأي، وممن

---

(٧٧) المائدة - الاية :٦.

(٧٨) أنظر : معرفة السنن والاثار: ١/١٠٠ وأبي بن كعب ومكانته بين مفسري الصحابة : ١٩٢.

(٧٩) المعجزة الكبرى : ٥٩١.

(٨٠) مقدمة ابن خلدون : ٣٤٧.

ذهب إلى هذا الاشاعرة والمعتزلة والشافعي في الجديد وأحمد بن حنبل في إحدى الروايتين[٨١].

ومما تقدم نخلص إلى أن أقوال الصحابة الكرام ولاسيما في البيان والكشف عن معاني القرآن تكتسب خصوصية ترجع اعتماد تفسيرهم للأمور الآتية :

١- إنهم تلقوا تفسير القرآن من مفسره الأول رسول الله ﷺ، فكلما حفظوه منه شفاها تعلموه تفسيرا لأنه كان قدوتهم قولا وفعلا فبهديه استناروا وعلى طريقه ساروا.

٢- إن السليقة العربية للصحابة الكرام أهلتهم معرفة أساليب القرآن لأنهم أهل فصاحة ورواد بيان، فما سألوا رسول الله ﷺ عن الألفاظ ليفسرها تفسيراً لغوياً لأنهم كانوا عرب الألسن[٨٢].

٣- إنهم عاينوا التنزيل وليس بعد العيان بيان، فهم عرفوا أول ما نزل وآخر ما نزل ووقفوا على سبب النزول، وتعرفوا على مكية ومدنية مما سهل عليهم معرفة الناسخ والمنسوخ ولهذا يرجع اليهم في فهم ذلك لأنه لا يحل القول فيها برأي[٨٣].

٤- لقد ولدت تقواهم علماً أوسع إدراكا واكثر توفيقاً في فهم النصوص القرآنية والتعامل معها بصدق نية فكيف لا يكونون كذلك والله جل وعلا يقول ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾[٨٤] .

٥- لقد ألزمتنا وصية الرسول ﷺ التمسك بسنتهم والسير على هديهم بقوله : (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ)[٨٥].

وعليه فان الواجب يدعونا أن نأخذ بآرائهم ونضعها موضع إعتبارنا نهتدي بها ولا سيما إذا عرفنا أن العلماء قد وصفوا لنا قيمة ما وصلنا منهم بأنه حسن مقدم[٨٦]. وهذ ابن

---

(٨١) أنظر : اسباب اختلاف الفقهاء في الاحكام الشرعية : ٤٧٤-٤٨٠ والوجيزة في اصول الفقه :٢٢٠ واصول الفقه الاسلامي : ٢٣٩ وأبي بن كعب ومكانته بين مفسري الصحابة : ١٩٢.

(٨٢) أنظر : تطور تفسير القرآن : ١٧.

(٨٣) أنظر : البرهان : ١٧٦/٢ والاتقان : ٨/١ و ٢٣ و٢٨.

(٨٤) البقرة - الاية :٢٨٢.

(٨٥) سنن ابن ماجه : ١٦/١ وذكره صاحب التاج الجامع للاصول في أحاديث الرسول : ٤٦/١.

(٨٦) انظر : البرهان :١٥٧/٢.

كثير يرى وجوب الرجوع إلى أقوال الصحابة في التفسير إن لم يسعفنا القرآن ولا السنة بتبيان ذلك لأنهم (أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها من الفهم التام والعلم الصحيح)(٨٧).

الخاتمة

بعد هذا العرض لدور الصحابة الكرام في تفسير القرآن الكريم ومنهجهم فيه وحجية ذلك فقد توصلت لما يأتي :

١- كان للصحابة دور كبير في تحمل عبء تبليغ كتاب الله وبيان معانيه بفضل ما اتصفوا به وما تهيأ لهم من أسباب جعلتهم يأخذون دورهم الإيجابي والفعال بعدة وفاة رسول الله ﷺ.

٢- تمسك الصحابة ﷺ بمنهج تفسيري أتسم بتسلسل منطقي هو الرجوع إلى القرآن في كشف المعاني فان لم يجدوا التجؤا إلى سنة رسول الله ﷺ فان أعيتهم اجتهدوا كما كانوا يرجعون إلى لغتهم ولاسيما الشعر لأنه ديوان العرب وقد نقل بعضهم عن أهل الكتاب في بعض المواضع للاستشهاد لا للاعتضاد يدفعهم حب استطلاع فيما اوجزه القرآن واتفق فيه مع الكتب التي سبقته، وتميزت تفاسيرهم بندرة الاختلاف وعدم الإسهاب ولاسيما في التفسير اللغوي، واكتفي بما ظهرت الحاجة اليه ولم يتعرضوا للأيات العلمية، وهذه الجهود أينعت مدارس تفسيرية هي مدرسة مكة ومدرسة المدينة ومدرسة الكوفة.

٣- إن تفسير الصحابي له حكم مرفوع إذا كان في الأمور التي لا دخل للاجتهاد فيها كأسباب النزول والمحكم والمتشابه والمكي والمدني والأمور الغيبية وهذا لا يجوز رده اتفاقا.

٤- إن تفسير الصحابي في الأمور التي فيها للرأي والاجتهاد مجال فالعلماء بين آخذ ومانع، فمن أخذ به علم أنهم أدرى بكتاب الله لما شاهدوه من القرائن والأحوال ومن منع نزل اجتهادهم بمنزلة أي اجتهاد والمجتهد يصيب ويخطيء.

٥- إذا حصل إجماع من الصحابة في تفسير آية أو بيان حكم فليس لنا إلا الأتباع.

---

(٨٧) تفسير القرآن العظيم : ٣/١.

ختاماً أرجو أن يكون هذا البحث مساهمة موفقة لخدمة العملية التربوية متضرعاً للمولى القدير أن يهبنا سداد القول وإتقان العمل إنه خير مسؤول واكرم مأمول وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مراجع البحث ومصادره

القرآن الكريم.

١- أسباب اختلاف الفقهاء في الأحكام الشرعية - د. مصطفى ابراهيم الزلمي- الدار العربية للطباعة - ط الأولى - بغداد - ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

٢- أسباب النزول - الواحدي - عالم الكتب - بيروت - لم يذكر سنة الطبع.

٣- أصول الفقه الإسلامي - د. بدران أبو العينين بدران - مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية - ١٩٨٤.

٤- أعلام الموقعين عن رب العالمين - ابن القيم الجوزية - دار الجيل - بيروت - ١٩٧٣م.

٥- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق - د. عائشة عبد الرحمن - دار المعارف- مصر ١٩٧١م.

٦- البرهان في علوم القرآن - بدر الدين الزركشي - دار الفكر.

٧- الإتقان في علوم القرآن - جلال الدين السيوطي - عالم الكتب - بيروت - ١٣٧٠هـ/١٩٥١م.

٨- التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - دار الكتب الشرقية - تونس - ١٩٥٦م.

٩- تطور تفسير القرآن - د. محسن عبد الحميد - دار الكتب - ١٩٨٩م.

١٠- تفسير القرآن العظيم - ابن كثير - دار المعرفة - بيروت - ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.

١١- التفسير والمفسرون - د. محمد حسين الذهبي - دار الكتب الحديثة - ط الثانية - ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

١٢- جامع بيان العلم وضله - ابن عبد البر - م العاصمة - مصر - ط٢ - ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.

١٣- حلية الأولياء - احمد بن عبد الله الاصبهاني - دار الكتاب العربي - بيروت - ط٢ - ١٩٦٧م.

١٤- شرح البدخشي وشرح الاسنوي لمنهاج الوصول في علم الأصول - للبيضاوي - م محمد علي - مصر. لم يذكر السنة.

١٥- صحيح البخاري بشرح فتح الباري - ابن حجر - م البهية - مصر - ١٣٤٨هـ.

١٦- صحيح مسلم بشرح النووي - دار الفكر - بيروت - ١٩٦٩م.

١٧- الطبقات الكبرى - محمد بن سعد - دار الصياد - بيروت - ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.

١٨- فواتح الرحموت في شرح مسلّم الثبوت - محب الله بن عبد الشكور - بأسفل المستصفى - الأميرية مصر - ١٣٢٥هـ.

١٩- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - نور الدين الهيثمي - دار الكتاب العربي - بيروت - ط٢ - ١٩٦٧م.

٢٠- معرفة السنن والآثار - البيهتي - القاهرة - ١٣٥١هـ/١٩٣٢م.

٢١- المعجزة الكبرى (القرآن) - أبو زهرة - دار الفكر العربي - مصر - ١٩٧٠م.

٢٢- مقدمة في أصول التفسير - ابن تيمية - دار مكتبة الحياة - بيروت - ١٩٨٠م.

٢٣- مقدمة ابن خلدون - دار العودة - بيروت - لم يذكر سنة الطبع.

٢٤- مقدمتان في علوم القرآن - مقدمة كتاب المباني ومقدمة ابن عطية - مصر - ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

٢٥- المعجم الجامع لغريب مفردات القرآن الكريم - ابن عباس، ابن قتيبة، مكي بن أبي طالب أبو حيان - عبد العزيز عز الدين السيروان - دار العلم للملايين - لم يذكر سنة الطبع.

٢٦- الموافقات في أصول الأحكام - إبراهيم بن موسى الشاطبي - م المنيرية - مصر - ١٣٤١هـ.

٢٧- الوجيزة في أصول الفقه- د. عبد الكريم زيدان- ط٥ - م سلمان الاعظمي - بغداد - ١٣٩٤هـ/١٩٧٤.